سياسة الحصار . . وثورة الإسلام

منذ الحرب العالمية الثانية والدولتان الكبريان توجهان السياسة الدولية .. وربما شاركت بعض الــدول الغربيــة والشرقية في تقرير الأمور .. أما الدول الصغرى فقد كان عليها دائماً الانسياق فيما تُساق إليه .. وتتصل هذه المرحلة من تاريخ السياسة الدولية الحديثة بمرحلة جديدة أشد تعقيداً اليوم ، تتداخل فيها معالم (الانفراج في أوروبــا) أولاً ، مع (تحوّل الصراع بين الشرق والغرب إلى أرض ما يسمى بالعالم الثالث) ثانياً ، مع ما أطلق عليه (أزمــة الــشمال والجنوب) ثالثاً .. وفي هذا الوضع السياسي الدولي الجديد توفر أحد الشروط الأولية الأساسية لبحث الدول الصغرى عن تميزها حضارياً وفكرياً وسياسيا .. ونظراً إلى أن البلدان الإسلاميّة –وهي أكثر من أربعين بلداً– تــشكل نــواة مجموع الدول الصغرى .. فقد كان من الطبيعي أن يكون الإسلام هو نظام الحياة المنشود للتميّز ..

وهنا يبرز الصراع الفكري–العقائدي بين الشيوعية والرأسمالية على أرض البلدان الصغرى بصورة خاصــة مجــرد وسيلة إلى غاية .. غاية ضمان السيطرة المادية على المواد الخام ومنابع النفط . ومن هنا كان منطلق الدولتين الكبريين في مواجهة الإسلام منطلقاً مادياً في الدرجة الأولى .. فأصبح في نظرهما ببساطة (خطراً جديداً) عليهما .. في الوقت الذي يرى المسلمون في إسلامهم .. مصدر تميزهم الثابت تاريخياً ولا سيما على المستوى الفكري والحضاري ..

وليس من المستبعد إطلاقاً ، أن يكون ظهور عالم إسلامي يعيش على الإسلام ويحكمه الإسلام .. خطــراً علــى المصالح الأجنبية ، ولكن هذا الخطر يتركز في الدرجة الأولى على تلك المصالح المتناقضة مع ما تدعيه المدنية الغربيــة لنفسها من قيم –على الصعيد النظري على الأقل– أي تلك المصالح المتجسدة في استمرار استغلالٍ ظــالم لثــروات المسلمين المادية لنمو اقتصادي غير محدود في الغرب ، واستمرار استغلال ظالم للموقع السياسي والجغــرافي للبلــدان الإسلاميّة لتحقيق الأهداف السياسية والاستراتيجية للغرب أو الشرق ..

وكانت ممارسة هذا الاستغلال –ولا تزال قائمة على التعاون مع أنظمة دكتاتورية ترفضها أغلبيــة المــسلمين في بلادهم

غزو أفغانستان في نظر معظم المسلمين مرحلة جديدة من مراحل التوسع الروسي–الشيوعي . والمسلمون يعلمون أن الروس طامعون في النفط ، ولكن عوامل توسعهم ليست منحصرة في إطار النفط وحده . وتاريخ مائتي عام مــن التوسع الروسي على حساب الشعوب الإسلاميّة والأراضي الإسلاميّة مليء بالأدلة على أن الروس لم يكونوا ليتصرفوا بغير ما تصرفوا به في أفغانستان .. وإن لم يكن للنفط وجود . ولهذا –مع أسباب عقائدية راسخة– يبرز الصراع مع الاتحاد السوفييتي كصراع وجود .. صراع موت أو حياة . وربما كان بعض أصحاب السلطة في البلدان الإسلاميّة من الموالين للشرق حريصين على إبراز حكمهم على العلاقات بالاتحاد السوفييتي في صورة أخرى .. ولكن لا يجهل أحد

على الإطلاق أن هؤلاء الحكام لا يستندون إلى أية أغلبية على مستوى الشعوب .. وبالمقابل فإن الحكومات الموالية للغرب تستغل التوسع الروسي الجديد لتبرير سياسة الموالاة للغرب . والغرب يخادع نفسه إلى حدٍ كبير إذا ظن أن هذا التبرير لا يزال يجد أيّ صدى معقول لدى الشعوب .. بل على العكس من ذلك تماماً ، فاستمرار دعم الغرب للدكتاتوريات الموالية له يزيد عدم ثقة الشعب بها وبه .. والتصريحات الفارغة المحتوى الصادرة عن بعض السياسيين ، بأنهم يريدون الدفاع عن عالم الإسلام لا تجد من يصدقها . فمعظم المسلمين على قناعة عميقة ، بأن الغرب والشرق على السواء يعملان على تثبيت مصالحهما الاقتصادية والأمنية وتوسيعها على حساب حرية الشعوب الإسلاميّة وتقدمها ..

إنّ التوسع الروسي .. والأسطول الأحمر .. ووجود القواعد السوفييتية ووجود الخبراء والجنود السوفييت والكوبيين .. والدعم السوفييتي المستمر لأنظمة دكتاتورية قائمة في البلدان الإسلاميّة .. كل هذا لا يجد إلاّ أشد الإدانة والرفض القاطع لدى الجماهير الإسلاميّة .. مثله في ذلك تماماً كمثل الهيمنة السياسية والاقتصادية الغربية ، ووجود الأساطيل والقواعد العسكرية والخبراء والجنود الغربيين ، والدعم الغربي المستمر لأنظمة دكتاتورية قائمة في البلدان الإسلاميّة . والقرارات الصادرة عن المؤتمر الأخير في إسلام أباد .. ليست إلاّ دليلاً على أن الحكومات الموالية للغرب اضطرت للامتثال بصورة جزئية محدودة لضغط الشعوب المتزايد .

والمعسكران الكبيران يعطيان يومياً الحجة بعد الحجة لتزايد هذا الشعور وتعميق هذا الاقتناع على مستوى الشعوب الإسلاميّة .. فالمسلم المثقف أو الأمي على السواء يذكر في نفس الوقت أفغانستان وإيران ، اليمن الجنوبي وعمان ، كارمل والسادات .. كأمثلة بينة على سياسة الهيمنة المفروضة من جانب الشرق والغرب على السواء ، يذكر المسلم في نفس الوقت أن الاتحاد السوفييتي أعد سنوات وسنوات من أجل سيطرته على أفغانستان ، وأن الولايات المتحدة الأمريكية عرفت في وقت مبكر بنوايا الاحتلال السوفييتية ولكنها انتظرت بردود أفعالها حتى أعطاها الوضع المتفجر بعد الاحتلال فرصة جديدة لتصعيد مساعي هيمنتها على البلدان الإسلاميّة . والوجود السوفييتي المتصاعد حول منطقة الخليج النفطية ليس أقل هولاً في نظر المسلم المخلص مما يسمى بقوة المطافئ (الطوارئ) الأمريكية المتحركة ، والتي يجري إعدادها منذ سنوات

وكثيراً ما نتساءل : هل يكمن وراء هذه الخطوات من الجانبين صراع على النفوذ .. أم اتفاق غير مكتوب على اقتسام مناطق النفوذ ؟ .. ولكن ماذا يعني الجواب أياً كان ؟ .. إنّ النتيجة واحدة ، وهي أن الدولتين الكبريين تسعيان لتحقيق أهدافهما الإمبريالية بكل سبيل ، وقد يبرز الدور الروسي بصورة أقبح وأصرح أحياناً ، ويبرز الدور الأمريكي بصورة أشد كيداً ودهاء أحياناً أخرى .. ولكن العدوان العسكري المخالف للقانون الدولي من جانب السوفييت ليس أسوأ بكثير من دور الشرطي الدولي المتجدد من جانب الأمريكيين .

لقد نشط العالم الغربي بزعامة أمريكا نشاطاً واسعاً في أعقاب الاحتلال الروسي لأفغانستان .. ولكنه لم يظهر في نشاطه أيّ تحول حقيقي عن أهدافه الإمبريالية في بلادنا الإسلاميّة ، بل على العكس تماما .. ضاعف جهوده للسيطرة والهيمنة .. والشواهد على ذلك ظاهرة وعديدة

وما أعلن فعرف باسم (صيغة كارتر السياسية الجديدة) وليست جديدة ، كان قائماً على محـــورين رئيـــسيين .. الأول تجاه موسكو .. ويقول : لا يسمح للمد الروسي أن يتجاوز أفغانستان ، والثاني تجاه المـــسلمين .. ويقـــول : الخليج كله –أي ثروة المسلمين الرئيسية– منطقة مصالح غربية! ..

ولئن كان المحور الأول يستهدف تجديد الحصار على الشيوعية في الدول الصغرى عامة والبلدان الإسلاميّة علـــى وجه الخصوص .. فالمحور الثاني يستهدف بوضوح حصار الثورة الإسلاميّة ومنع اشتعالها في كل مكان مـــن العـــالم الإسلاميّ .. ولا سيّما في منطقة الخليج ..

أما الشيوعية فلم تستطع في الماضي .. ولا تستطيع الآن أو في المستقبل تثبيت قدم راسخة لنفسها زمناً طويلاً في بلد إسلامي .. ويضحك على نفسه من يقول إنّ هذا بفضل سياسة الحصار الغربية الماضية أو الحاضرة .. فالفـــضل كل الفضل يعود إلى القوة الذاتية للإسلام رغم أنه محاصر داخل أرضه .. فالشيوعية بكل ما تلون به وجههـــا مـــن الطلاء عاجزة عن التواجد الدائم في أرض شعب مسلم

وأما حصار (الثورة الإسلاميّة) فعين الغرب موجهة في ذلك إلى إيران في الدرجة الأولى .. وهنا تكمن معـــضلة الغرب الراهنة .. فقوة إشعاعات الإسلام لا تنطلق من إيران بالذات ، وإن كانت إيران بعد الثورة مصدر تعزيز كبير لها .. إنما هي نابعة من أعماق الشعوب الإسلاميّة في كل مكان .. والشعوب لا تحاصر .. رغم الدكتاتورية والبطش والإرهاب .. بل إنّ الدكتاتورية والبطش والإرهاب تسد أبواب التغيير التدريجي وتفتح باب التغيير الوحيد الباقي .. باب الثورة بالإسلام ومن أجل الإسلام ..

معضلة الغرب اليوم ظاهرة .. في أن الأمريكيين لا يقاومون –بل قد يدعمون في كثير من الأحوال– وجود إسلام تدعيه حكومات ، وترفضه الشعوب ، يرفض الشيوعية ، ويقبل بالهيمنة الغربية .. وإذا بهم يجدون أنفـــسهم أمـــام الإسلام الحقيقي ، الإسلام المنـــزل ، لا يستطيع أحد اصطناعه ولا القضاء عليه ، و لم يعد وجود قوته المتفجرة قاصراً على أعماق القلوب المؤمنة به ، بل برز ليلعب دوره على المستوى السياسي والاجتماعي والفكري في كل مكان من العالم الإسلاميّ ..

وهذا الإسلام .. القائم في إيران وسواها .. تريد الولايات المتحدة الأمريكية –كالاتحاد السوفييتي– حـــصاره .. احتواءه .. كبته .. وأده .. لو استطاعوا .. ولا يستطيعون ..

وإذا فشلت الجهود المبذولة عبر مئات السنين للقضاء على الإسلام المنـــزل بالمواجهة الفكرية والعقائدية .. لم يبق أمام الدولتين الكبريين اعتماداً على قوتهما المباشرة وعلى أتباعهما .. إلاّ سياسة استخدام القوة والعنـــف .. بـــالغزو الخارجي .. والوجود العسكري .. وتصعيد البطش والتنكيل على أيدي الأنظمة الدكتاتورية المحلية ..

ويبقى في عين المسلم الواعي كألعاب صبيان ما يبذله هؤلاء من جهود -وعينهم على إيران بالـــذات- لإبـــراز الإسلام الثائر في إيران على أنه إسلام آخر .. فيتحدثون عن الشيعة والسنة بما لا يكاد يوجد مزيد عليه ، ويتحدثون عن ثورة إيران بأنها قومية .. إيرانية ، ويتحدثون عن تصدير الثورة .. وخطر تصديرها على الآخرين .. ولا يفـــرق المسلم الواعي إلاّ بين إسلام منـــزل -وإن اختلفت الاجتهادات في إطاره- وبين إسلام مزيف ، أمريكي المحتوى ، أو سوفييتي المحتوى .. يظهر في رداء حكوماتٍ إسلامية المظهر .. تابعة للشرق والغرب روحاً وعملا .. والدفاع عـــن هذا الإسلام المزيف هو هو عين الدفاع عن مصالح الشرق والغرب فحسب

هذه السياسة الإمبريالية ليست جديدة . ولكن الوضع السياسي الدولي تغير .. وتغير أيضاً (الوضـــع الـــسياسي الداخلي) .. للعالم الإسلاميّ .. إنّ ما يسمى بعامل (العودة إلى الإسلام) لم يعد يمكن تجاهله ولا التقليل من شـــأنه . إنما تسعى أجهزة الإعلام في كل مكان إلى تشويهه عمداً أو جهلاً ، بربطه بالشعارات الإسلاميّة الظاهرية أو بـــبعض المظاهر الشكلية التي تعمد بعض الحكومات في البلدان الإسلاميّة إلى الأخذ بها . والواقع أن قوة هذا العامل كامنة في الدرجة الأولى في ازدياد وعي الشعوب الإسلاميّة وشعورها بالتميّز بإسلامها .

هذا الوضع .. المرتبط بحقيقة اعتماد الغرب والشرق في تحقيق أهدافهما على الأنظمة الدكتاتوريـــة القائمـــة في البلدان الإسلاميّة ، يضع المسلمين أمام واجب واحد بثلاثة عناصر مترابطة متكاملة ، وهي مواجهة المـــدّ التوســـعي الروسي العسكري والسياسي ، ومواجهة دور الشرطي الدولي الأمريكي والتخلص من السيطرة السياسية والاقتصادية الغربية المهيمنة ، واستبدال الأنظمة الدكتاتورية الموالية للشرق والغرب على السواء بأنظمة إسلامية حـــرّة متميّـــزة مستقلة ..

ومن يقدّر إرادة الشعوب حق قدرها ، ويعرف حقيقة قوة التميّز الإسلاميّ يعلم أن هذا الواجب ســـيؤدي .. إن عاجلاً أو آجلا .. على أفضل وجه بعون الله ..